

الخطابة والسياسة

د. علي الشامي

١ - حول الخطابة :

تعكس الخطابة - بوصفها شكلاً هاماً من أشكال التعبير والاتصال البشري - نشاطاً سياسياً أيديولوجياً عن طريق اللغة . إنها موضوع الكلمات ، التعابير والرموز التي تعمل تدليلاً على معنى ، الخطابة هي أحد أشكال التعبير التي لا تحتل انقساماً بين داخلها ، وخارجها ، هي كلّ ، وحدة الدال والمدلول ، وحدة الشكل والمعنى ، وحدة اللغة والسياسة . وفي لحظة مرور تناقض يفصل بين الوسيلة والهدف ، يكون الفصل (التناقض) جزءاً من « مهنة » الخطابة نفسها وليس نسقاً لوحدة بنيّتها . إن أية دراسة للخطابة السياسية لا تأخذ بعين الاعتبار هذه الوحدة ، تضعّ هدفها ، وكل تحليل يقوم على تجزئتها يغدو وتسليّة ، ثرثرة .

ان معرفة أصول الخطابة السياسية تستلزم عدم التوقف أمام بنيّتها اللغوية ، وتشترط تجاوزها الى دائرة أكثر تحديداً تتجمع فيها الدلالات السياسية والثقافية المنعكسة في صور لغوية ، والتي عن طريقها تحصل المستويات النطقية (القاء ، تنعيم الخ...) والحركات العضوية المترافقة معها ، على أهميتها .

الخطابة هي ممارسة سلطة في مقابل الحوار الذي هو « صيغة اللغة التي هي حرية » يأتي الكلام الفردي - المونولوج - بوصفه « صيغة اللغة التي هي سياج »^(١) . بواسطة هذا الشكل الخطابي (المونولوجي) يتمكن الخطيب من السيطرة على مستمعه ، خاصة اذا كان يتمتع بوضعية اجتماع - سياسية تفوق تلك التي يتمتع بها هذا الأخير ، الأمر الذي يسمح بممارسة هيمنة فعلية تستمد ركائزها من ردة فعل وحركات البشر : صوت الخطيب وإشاراته ، صمت المستمع وانفعالاته . بل أكثر من ذلك ، تجد الهيمنة المذكورة دعائمها في الشكل الخطابي نفسه حيث تتمظهر عملية احتكار للفعل الكلامي والجهد المحرّض الممارس على الوعي الدوني للمستمع .

وبسبب كونها كذلك ، أي ممارسة سلطة ، وبغض النظر عن مضمون الفعل السلطوي نفسه ، تتجاوز الخطابة المضامين والمعاني التي تعبّر عنها لحظة انخراطها في سلوك نموذجي لا يستهدف معرفة رأي المستمع أو موقفه ،

وانما ، بالعكس تماماً ، يسعى لتحضير هذا الأخير نفسياً ، ويدفعه عن طريق الشكل الخطابي الى الموافقة على أفكار الخطيب : سلوك تحريضي اثارى لانتاج وضعية قبول . بمعنى آخر ، انها ممارسة سلطوية لحظة صدورها الآحادي اللاغي للحوار وتبادل الآراء ، الأمر الذي يعدها عن « الديمقراطية » دون أن يلغي ذلك إمكانية وجود توافق أو انسجام بين موقف الخطيب وموقف المستمع .

الخطابة هي ممارسة ثقافية اذا كانت اللغة « لا تزيد عن كونها مدلولات منعكسة وعابرة عما هو مادي ملموس »^(٢) فان شكل التدليل نفسه يجسد تظهراً أيديولوجياً يستمد جذوره (دعائه) من الترميز الدلالي (الرموز) ، طريقة الايصال (اللقاء) ومن اختيار الكلمات وراء كل حرية تعبيرية يحتفي موقف أيديولوجي ، وفي أحضان كل لغة تجلس ثقافة ، فلا يوجد بالتالي فصل بين نظام الأفكار وطريقة تخريجها . فالتخريج التعبيري هو جزء لا يتجزأ من نظام الأفكار ، وهو عملياً الشكل الفاضح للثقافة . « الواقع » الذي يتعرف الى نفسه في التعبير ، انما هو ذاته تعبير ، أيديولوجية^(٣) .

الخطبة هي في آن واحد ، وحدة خطابية مكوّنة من بنية لغوية - لغة - وفعل سياسي منعكس في موقف معين . المقصود بكلمة « لغة » هو اجتماع التعبير والشكل والهدف (المعنى) في بنية لغوية ذات وظيفة محددة . أو كما يقول ادمون أورتيغ « الخطابة هي تعبير مدار بواسطة شكل لغوي من الاتصال (التخاطب) وحيث يمكن أن يتوسع المعنى بانتقالات متتالية حتى يصبح معروفاً (المعنى) صحاً أو خطأ »^(٤) . إنها تعبير لغوي يتخذ شكلاً معيناً ويستهدف معنى معيناً ، وحيث يكون الحكم النهائي مشروطاً باكتمال التشكل البنيوي بتمام عناصره الثلاثة .

تندرج تحت كلمة « موقف » مجموعة الشروط الداخلية والخارجية المحيطة بالفعل الخطابي ، يعبر مجموع العلاقات القائمة بين الخطيب والمستمع ، الوعي المشترك بينهما مع تفاوت درجاته ، الحركات العضوية ودلالاتها النفسية عن الشروط الداخلية ، بينما يعبر الحدث ، مناسبة الخطبة ومكان إلقائها عن الشروط الخارجية .

وفق هذا السياق يمكن اعتبار الخطابة أكثر الوسائل أهمية والتي بواسطتها يأخذ المضمون السياسي شكلاً خارجياً . إنها التخريج الذي بفضل « ينكشف المضمون التكويني للفكر »^(٥) تبعاً لذلك تتحول الممارسة الخطابية الى عامل مهم ومساعد في عملية رصد ومعرفة المنظومة الفكرية العاكسة لسياسة وإيديولوجية الخطيب . فهي ، من ناحية أولى ، تساعد على معرفة مفاصل فكر الخطيب من خلال فصلها بين أقسام البنية الخطابية المؤلفة من التعبير والشكل والمعنى : طريقة اختيار العبارات التحريضية ، الشكل الذي تأخذه الخطبة ، ترتيب الأفكار وتسلسلها ، وأخيراً الهدف المفترض بلوغه . هذا الفصل ليس سوى مساهمة في عزل أفكار الخطيب بعضها عن البعض الآخر للبحث في أساس كل منها ، وبالتالي إعادة جمعها بغية التوصل الى تقويم أو حكم عام على الفكر السياسي والإيديولوجي الذي كانت الخطبة مجال تظهره بحيث يمكن القول إنه من خواص هذه الأخيرة إنها تركز على امكانياتها الفاصلة « بين الإشارة والفكرة من ناحية ، وبين الواقع

المباشر للشيء والفكرة ، من ناحية أخرى «^(٦) وهي - أي الخطبة - من ناحية ثانية ، عامل حفاظ على توحيد أقسام البنية نفسها بحيث يكون التقسيم قائماً داخل الوحدة وليس خارجها فليس هناك خطبة بدون شكل ولا هدف . الوحدة الخطابية - بالمعنى العددي - هي وحدة وانقسام : وحدة بوصفها كل ، وانقسام بمعنى أنها كل مؤلف من أجزاء يمكن دراسة كل منها على حدة .

أ) التعبير الخطابي : يختص التعبير الخطابي بفعل «تبعية» يعطيه صفة تميزه عن صفات التخاطب الأخرى من خلال اشتراطه تبعية المستمع للخطيب .

تبرّر هذه التبعية نفسها على مستويين : مستوى أول يقوم على التحاق في الموقف . فالتعبير الخطابي هو نشاط فرد (الخطيب) هادف الى خلق نشاط عند جماعة (المستمعين) . وبصورة أكثر وضوحاً ، هو امتلاك مسبق للموقف عند الأول واحتمال امتلاك موقف مماثل أو حيادي أو مضاد عند الآخرين ، وذلك وفق قدرة الأول على التأثير . التبعية اذن نتاج التحاق موقف المستمعين بموقف الخطيب كونها كذلك ، فانها تتجلى من خلال المجال الواسع والحرية التامة نسبياً المساعدَيْن للخطيب على اختيار لغته وعباراته ، وتحريك أعضائه الصوتية والعضوية . إذا أضيف الى هذا الامتياز معرفة الخطيب المسبقة بالوضع أو الحدث ، مدار الخطبة ، لا يبقى أمام النجاح المطلوب سوى القدرة الذاتية في الاستفادة القصوى من تبعية الموقف المذكورة : حركة الخطبة وبراعة الخطيب تملكان إمكانية هائلة على خلق حالة حركة وردة فعل عند المستمعين ، وهي لذلك تضاعف فعل التبعية . فالتعبير الثاني ، العفوي غالباً ، كالتصفيق مثلاً أو مقاطعة الخطيب ، ملحق بالتعبير الأول . التعبير الفعل والتعبير رد الفعل يشكلان أهم مظهر من مظاهر التبعية ، ودراستهما تتجاوز الاطار اللغوي - الخطابي الى مجال أيديولوجي ونفس - اجتماعي تكمن فيه الثقافة المشتركة لكل من المرسل والمتلقي .

مستوى ثان يقوم على الالتزام . تبرّر التبعية نفسها هنا منذ اللحظة التي يلزم فيها الخطيب مستمعه بضرورة امتلاك قدرة استقبالية تساعده على متابعته - متابعة الخطيب - منذ بدء الخطبة حتى نهايتها ، وذلك دون أن يتيح له أدنى فترة زمنية للتفكير . كل خطبة تتماز بفعل تبعية ولكن حدّتها تختلف في الوسيلة . فالخطبة المنشورة بطريقة غير مباشرة عن طريق وسائل الاعلام الأخرى ، كالصحافة مثلاً ، تعكس تبعية ضمنية ضعيفة الالتزام . فهي - الخطبة المكتوبة - تتيح لقارئها المجال للتأمل والتفكير الهادئ ، كما تحرره من قيد التسلسل الزمني للنص ، حيث يستطيع القارئ العودة الى فقرة سابقة ، أو القفز الى فقرة لاحقة من النص مما يعينه على التعمق في دراسته وفهمه^(٧) . أما الخطبة المسموعة فإنها ، من جهتها ، تقيد المستمعين بتسلسل ورود النص كما هو ، وتلزمهم بتتبعه خطوة خطوة دون امكانية الرجوع الى الوراء أو القفز الى الأمام . على الذاكرة وحدها أن تتبع الموضوع المسموع وتحتزنه لكي يتسنى للمستمع استعادته لاحقاً بغية التعمق فيه وتحليله وفهمه . هذا التبرير الثاني يشترط مقدرة ثقافية ونفسية عند المستمع ، كما يشترط كفاءة وخبرة عند الخطيب . ولحظة عدم التعادل في الشروط تفقد الخطبة تأثيرها المطلوب : حالة الملل ، أو خروج

الناس من مكان القاء الخطبة أو ابتعادهم عن سماعها ، ظواهر تتأتى عادة من عدم قدرة الناس على ملاحظة الخطبة لأسباب قد تعود لمضمون الخطبة نفسها أو لثقافة المستمعين ووضعهم النفسي ، وقد تعود لضعف في كفاءة الخطيب الذي يفتقد لبراعة خاصة تعبيرية ولغوية التي بدونها يصعب عليه السيطرة على مستمعيه وبكل الأحوال فإن التبعية المذكورة تربط المستمع بالخطيب وعلى هذا الارتباط يتأسس أحد أهم شروط النجاح أو الفشل في التعبير الخطابي .

يمتاز التعبير الخطابي بفعل « فردي » ، أي بكونه صفة خاصة لمتكلم ، نشاط فردي قائم على قدرات فردية . فالتعبير (الخطابة) هو النشاط الذي يمارسه الخطيب لإعلان آرائه والعمل على تسريبها وتعميمها ، وعلى توفر قدراته الفردية يتوقف نجاح مهمته التحريضية .

تشير هذه الفكرة الى أهمية الطريقة التعبيرية في الخطابة ، وانطلاقاً منها يمكن تقديم أربع ملاحظات أساسية حول طرق التعبير الخطابي .

أولاً ، يتحرك مرسل الكلام (الخطيب) في مجال اجتماعي يتعرض لتغير لا ينقطع . وهذا يختلف التحريض السياسي المباشر عن الاستراتيجية التي قد يشكل التحريض الخطابي أحد محطاتها ، وذلك لأنها « تتعامل مع فترات زمنية أطول ، ومع أهداف أبعد ، وتنطلق من اخضاع التفاصيل لعمليات تجريد ذهني مستمرة » . تشهد هذه التفاصيل تغيرات مستمرة في حركة الواقع ، وبالتالي يصبح من الصعب على الخطيب امتلاك الزمن اللازم لاجراء تحليل تفصيلي يطال كل جزء منها . وفق هذا السياق يخضع الخطيب المحرض لشروط الخطابة نفسها ، إذ إن اجتماع عدد كبير من الناس في مناسبة محددة يعتبر حدثاً غير قابل للتكرار ، واستتباعاً ، على المحرض الذي يتحدث فيه أن يعلن آراءه وقراراته في زمان ومكان الاجتماع رغم استحالة التحليل والتفصيل بينه وبين مستمعيه قبل القاء الخطبة مما يرغمه ، من ناحية عملية ، على اعطاء تقديرات تقريبية تمهد السبيل أمام اختراق عباراته لنفوس مستمعيه . وكما يقول كلاوس : « فبقدر ما يكون الحشد معداً بدقة أكبر ، ويعرف الخطيب بدقة البنية الاجتماعية والمواقف السياسية والمشاكل المشخصة والمزاج العام لمستمعيه ، بقدر ما يملك منطلقات أفضل لعرض أفكاره بصورة حيمة ، مؤثرة وفعالة ... »^(٨) .

ثانياً ، يتوقف نجاح التعبير الخطابي الى حد بعيد على معرفة الخطيب الجيدة بالمستمع وعلى اختياره للكلمات المناسبة للاستعمال التأثيري . إن عملية اختيار الكلمات نفسها ، بسبب اشتراطها كمن فاعلية التحريض والتأثير فيها ، تضع الخطيب في حالة سجال مع مستمعيه ذات طبيعة ودّية أو عدائية . « إن التأثير في سلوك الجماعات بكلمات لها طابع الأسلحة ، واستخدام اللغة كحالة خاصة من تكتيكات السجال ، يقتضيان استيعاب نتائج ومعارف نظرية السجال ، وتطبيقها على الاشكالية المطروحة » . من هنا ، تبدو عملية تبديل نمط سلوك المستمعين بواسطة الكلمات ، سجلاً بين المرسل والمتلقي . فاذا كان المستمع لا يملك نفس الميول السياسية التي لدى الخطيب ، فإن ارسال هذا الأخير يكون قد دخل في حالة تخاطب عدائي

تتصف بعدم تعاون أطرافها . وفي حالة العكس ، حالة التوافق في الميول ، تكون الممارسة الخطابية ودّية وتسم بتعاون المرسل والمتلقي . إن امتلاك هؤلاء لنفس المصالح ورغبتهما في الوصول الى نفس الأهداف ، يسهّل للخطيب طريقة ارساله ويخفف عنه ارهاق التحريض .

هناك حالة ثالثة تتوسط الحالتين المذكورتين وهي حالة الحياد عند المتلقي . فاذا تقبّل هذا الأخير عبارات الخطيب ، ليس بوصفه انساناً ذا موقف سياسي واع ، وانما ككائن أهله مزاجه ونشوؤه وتقاليده وتربيته لتقبّل المقولات التحريضية بصورة لا تمتاز بالقبول الواعي الايجابي ، فإن تعبير الخطيب يعكس حالة تخاطب غير متكافىء ، تناقض فيه الطبائع النفسية والثقافية المرافقة والمحيطة بعملية الارسال والتلقي . تلزم هذه الحالة الخطيب باختيار صحيح للكلمات ولطريقة استخدامها وذلك كشرط أساسي للوصول الى هدفه الاستراتيجي القائم على دفع المستمع الى تبني نمط من السلوك يتطابق بالدرجة الأولى مع مصالح المرسل . وفي هذه الحالة تحتل المهارة الخطابية أهمية كبيرة في التعبير الخطابي^(٩) .

ثالثاً ، يشترط التعبير الخطابي لكي يحقق نتائج ايجابية ، قدرة على استعمال مناسب للكلمات والحركات العضوية المرافقة لها . وسواء كان دور الاشارة أو الحركة الجسدية ثانوياً أم لا ، فإن الخطابة المعتمدة على انتاج حالة انفعالية لا تحتل فصلاً بين الكلمة والحركة . لكل من هذين العاملين دور محدّد وهام في التعبير الخطابي ، يرتبطان في علاقة عضوية ، يتمّان بعضهما أو يدعمان بعضهما البعض ...

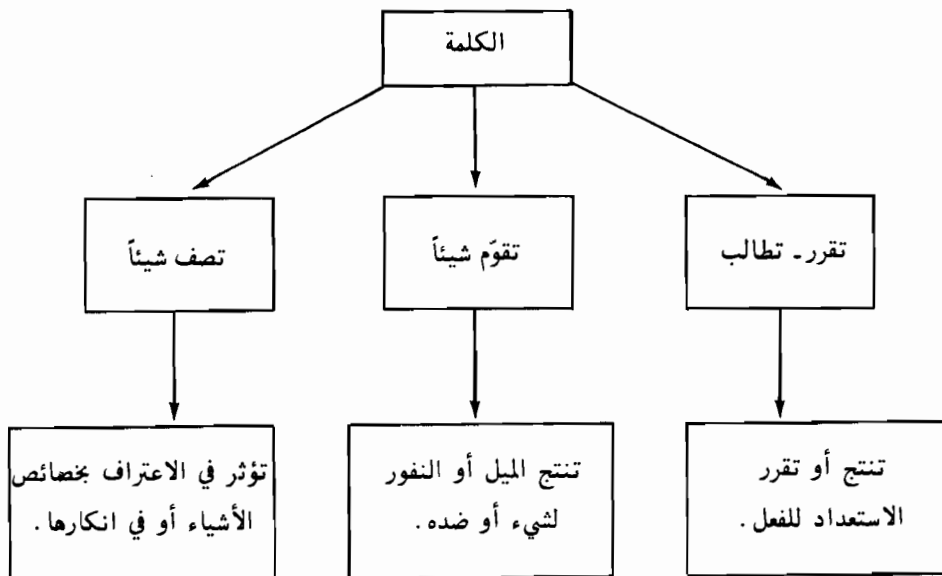
من ناحية الكلمات ، يمكن ايجازها بثلاثة أنواع ، لكل واحدة منها دورها في مسار الخطبة : الكلمة الوصفية ، الكلمة التقويمية والكلمة التحريضية « يؤدي الجانب الوصفي للرموز اللغوية الى تعزيز أو تغيير تفكير معيّن ، أو طريقة معينة من التفكير . وفي الوقت نفسه ، ونتيجة للرابطة بين الكلمات والأشياء الدالّة عليها ، يُفضي الجانب الوصفي لكلمة ما الى عزو خصائص معينة لأشياء معينة ... »^(١٠) . من جهتها ، تتجلى مهارة الخطيب في عملية اختياره المناسب للكلمات التي يألفها المستمع ويملك القدرة على فهمها واستيعابها ، ويعطيها انطلاقة من تجربته الخاصة معادها المادي . كذلك قابليتها ، أي قابلية هذه الكلمات ، على أن تستثير لدى المستمع التحديدات الوصفية التي يسعى المحرّض للوصول اليها بالأساس^(١١) .

الكلمة التقويمية وهي الحكم الخاص للخطيب على موقف خاص في الواقع . وهي تحديداً محاولة تعميم الموقف التقويمي الخاص بالمرسل واقناع المستمعين به . لذلك ، فإنها باستعمال محدود القدرة على الاقناع ، وخاصة في حالة عدم تطابق التقويمات لدى المستمع والخطيب حول حادثة معينة . لهذا السبب يضع الخطيب الكلمة الوصفية في خدمة التقويم ويمهّد ، ببراعة الوصف ، طريق تقويماته سواء كانت صدقاً أو تضليلاً . وتندرج تحت هذا النوع من الكلمات « الشنائم والاهانات والانهامات » وأحياناً الوعظ والنصح والتقرب . ولما كانت هذه الكلمات ذات منحنى تحديدي - تطلب شيئاً أو تمنع أمراً ما - فإنها تحتاج لكي تصبح

مقبولة الى تعليل مقنع ومفهوم من قبل المستمعين ، ولو بشكل نسبي ، الأمر الذي يجعلها أضعف من غيرها في تأثيرها التحريضي .

أما الكلمة التحريضية ، والتي تكون غالباً في آخر مراحل الخطبة ، فانها تقوم بدور التوجيه ورسم مسار سلوك المستمع بهذا الشكل أو ذاك ، نحو هذا الموضوع أو ذاك ... وهي التي ، باستفادتها من مفعول الكلمتين السابقتين تستطيع أن تفرض على المستمع سلوكاً محدداً تجاه موقف أو مسألة معينة . مما يعطي الكلمة التحريضية صفة خاصة بها ، تميزها عن غيرها ، لا سيما وأنها « لا تقول ما هي الأشياء ، بل كيف يجب مواجهتها »^(١٢) .

ان طبيعة الخطيب (صدقه أو كذبه أو وضوحه) وطبيعة الموقف السياسي ونوعية السلوك المطلوب التوصل اليه ، كلها أمور أساسية في تحديد ما اذا كان بالامكان توفّر هذه الأنواع الثلاثة من الكلمات في خطبة واحدة أم لا . وغالباً ما تكون متوفرة لأسباب تتعلق بتسلسل فاعليتها ، واحتياجاتها المتبادلة . خاصة وأن التعبير الخطابي ، بسبب من تأثيره المباشر ، يرغم الخطيب على اختيار الكلمات انطلاقاً من دور كل منها ، ومعرفته بمؤهلات كل منها . وقد رسم كلاوس لوحه خاصة برموز اللغة الخطابية انطلاقاً من نوعيتها ودورها ، وذلك على الشكل التالي^(١٣) :



من ناحيتها تمارس الحركة العضوية - اشارات اليد ، نبرات الصوت - غالباً دور الداعم للكلمة أو الحلول محلها . وهي ملازمة لها في عملية التخاطب المذكور ، وتختلف درجة استعمالها حسب ثقافة كل من الخطيب والمستمع وطبيعتهما الانفعالية . فالحركة ، بهذا المعنى ، تعبير خطائي عن طريق الجسد ، أو بالأحرى لغة غير مرئية ، منطوقة بصمت . إنها كلمة تعلنها اليد لتركيز كلمة يعلنها الفم . لذلك يمكننا القول أن الحركة « تنتمي الى نفس العامل الذي ينتمي اليه الكلام : انها تعبر بالاستحضار ، أي تظهر نفسها عن طريق اخراج الصور »^(١٤) .

رابعاً ، في التعبير الخطائي ترتبط الكلمة بالشيء الدالة عليه ، فلا يوجد انفصال للكلمة عن معناها .

من ناحية أولى ، ترتبط الكلمة التي يستعملها الخطيب بروابط وثيقة مع الوضع السياسي - الايديولوجي وهي تتغير مثله . دون أن يعني ذلك وجود لغات متناقضة بين الخطيب والمستمع ، أو وجود لغة خاصة (غير اللهجة) لكل طبقة أو فئة اجتماعية . وانما يعني ذلك قدرة الخطيب على تأويل الكلمات واستخدامها وفق أهدافه . وهو بذلك يعمل على ابراز ايديولوجيته وعلى دفع الناس الى قبولها في آن واحد : الكلمة واستعمالها . لذلك قد يلجأ الخطيب لاستعمال كلمات قديمة للتدليل على حدث جديد ، أو استعادة كلمات مهمة في التداول اليومي ، وذلك بهدف ترسيخ مصطلحات لغوية تخدم باستمرار ايديولوجية معينة .

من ناحية ثانية ، يعتمد الخطيب ، لضمان نجاح تحريضه ، الى استعمال كلمات مترادفة وكلمات ذات معان متعددة . بحيث ينفذ موقف الخطيب من خلال الترادف والتعددية ليأرس تحريضاً سلبياً أو ايجابياً . بهذا المعنى ، يمكن للكلمة ما أن تدل على شيء بالنسبة للمستمع ، وعن شيء آخر بالنسبة للخطيب ، ويمكن أن يكون لها استخدام لغوي خاص ومغاير ، متداول بين الناس . ومهما كانت علاقة الكلمة بالواقع ، فإن تعددية دلالاتها تساعد الخطيب على طمس الحقائق ، أو ابراز ما يراه مناسباً منها^(١٥) .

تسمح هاتان الناحيتان للخطيب بحرية نسبية في اختيار هذه الكلمات ، وغالباً تكرارها رغم اختلاف دلالاتها . مما يجعل عملية معرفة سلبية أو ايجابية التقدير لهذا الاستعمال ، بحاجة دائمة الى اجراء مطابقة مع الظرف الموضوعي . ورغم صعوبة البحث والمطابقة بشكل مباشر ، وهذا أمر خاص بالتعبير الخطائي ، فإن فحص صحة استعمال كلمة معينة للتدليل على معنى معين يظل وحده وسيلة معرفة هدف الخطيب الحقيقي . فاذا كانت الكلمة « ذاتية » والمعنى « موضوعي » تكون الخطبة مجال فحص ترابطهما وذلك من خلال وضع الذات مقابل الموضوع . وتخفف القدرة الدائمة على ممارسة هذه المقابلة عند المستمع ، من حجم التضليل عند الخطيب ، وبالعكس تساعد على تقبله لأفكار الخطيب بعد التأكد من واقعيتها . انسجاماً مع هذه المعادلة تصبح الخطابة مرغمة على سلوك منحى علمي في التحريض ، منحى يحدّد بوضوح علاقة الذاتي بالموضوعي ، علاقة المضمون بالشكل ، علاقة الشيء برمزه^(١٦) .

ب) الشكل : المقصود بالشكل مجموعة العوامل الداخلية التي بتوفرها تتشكل بنية خطابية . فالشكل هو في نفس الوقت مؤلف من أقسام متسلسلة ذات مضامين متعاقبة ووسيلة الوصول الى هدف يتجاوز الخطبة نفسها . إن بناء الخطبة وتقديمها بشكل صحيح يلعبان دوراً هاماً في ضمان نجاح مفعولها التحريضي .

وبسبب من نشأتها الفطرية ، عبرت الخطابة مساراً أوصلها الى نوع من التطور « الكمي » الذي ساعدها على الانتقال من حالة اللاتوازن في أجزائها ، والانفعال في أدائها ، الى حالة بناء منطقي ، تتوحد فيه أقسام الخطبة بتتابع مضامينها بحيث تتوالد الأفكار من بعضها وصولاً الى هدفها المطلوب . تساعد أشكال الخطابة المعاصرة على تقسيم البنية الداخلية للخطبة الى ثلاثة أقسام تساهم بدورها في تقديم اطارها النظري : المقدمة ، الموضوع والخاتمة .

١) المقدمة : هي فاتحة الخطبة ومدخل تموضعها . دورها الأكثر أهمية يكمن في قدرتها (امكانياتها) في السيطرة على المستمع ، في نقله من حالة اللامبالاة الى حالة استنفار ذهني للاستماع والتركيز . تتجسد وظيفتها الأكثر حساسية في سيطرتها النفسية والايديولوجية التي تضع المستمع ، منذ مباشرة الخطبة ، في موقع دوني يسمح للخطيب في تأسيس جيد لتحريضه . تمتاز المقدمة بوضع خاص بالمقارنة مع أقسام الخطبة الباقية وذلك بسبب كونها الحركة الاولى التي عليها ، يتوقف تدفق الحركات الأخرى . فاذا كانت مقدمة خطبة ما هزيلة أو فاشلة فإن خاتمها لن تكون إلا أكثر هزلة وفشلاً .

تشكل المعلومات . المتعلقة بسبب الخطبة وموضوعها وهدفها ، أهم خاصية تتميز بها المقدمة وأكثر مضامينها فعالية . فالمقدمة تهتم بشكل أساسي في نقل الحدث أو المناسبة إلى المستمع عن طريق المعلومات ذات الأهمية الفائقة في السيطرة على المستمع وفي نجاح التحريض الخطابي فهي - أي المعلومات - تعمل مباشرة على تغيير سلوك المتلقي ، خاصة وإن ردة الفعل التي تحدثها ليست إلا نتاجاً « لفعل المؤثرات الخارجية في الظروف النفسية الداخلية القائمة لدى الأفراد ، ولنشاطهم الفكري وتجربتهم الاجتماعية وفعاليتهم »^(١٧) . لا تتحرك المعلومات في فراغ ، وإنما تتضمن معان وتتوجه الى أفراد ، وهي لا تؤثر بذاتها ولذاتها بل بشر يفكرون ويعملون . « بهذا المعنى ، وبه وحده ، يمكن فهم مسار المعلومات ، أو سيرورة الخبر من عالم الأحداث الموضوعية الى المحرض المدرك ، ومنه الى مركز الترميز ، ثم الى قناة النقل ، فالمتلقي ، بوصفها مجرى معلومات في دائرة ناظمة (دائرة تحكيمية) »^(١٨) . بسبب موقعها في بداية التخاطب ، وبسبب كون المستمع في حالة ارتياح ذهني وتأهب عالي لاستقبال الكلام ، تشترط المقدمة أداء محكماً . فلا يجب مثلاً أن يغلب التعليق على المعلومات على ابلاغها بحيث يبقى تأثير المفاجأة قائماً ، وحادثة المعلومات محافظة على مفعولها ، وما يستتبع ذلك من فوائد الفوارق المعرفة ، إذ إن فعالية التحريض ترتكز على ارسال معلومات جديدة ، ومن المستحسن أن يكون المتلقي جاهلاً لها ، غير ملم بمصادرها ، أي أن يكون قابلاً للسيطرة الناجحة . وفي حالة العكس ، حالة معرفة المستمع المسبقة بمعلومات المقدمة ، تستلزم هذه الأخيرة مهارة خطابية وقدرة عند الخطيب في

عرضها والتعليق عليها بشكل مناسب يسمح له باستعادة تفوقه المفقود .

تساعد معرفة الخطيب لمستمعيه على نجاح مهمة المقدمة . الأمر الذي يتيح للأول تحديد طبيعة المعلومات المرسله الى الثاني وكثافتها . إن ملائمة المعلومات لطاقة الاستقبال لدى المستمع تشكل شرطاً أساسياً لنفاذ مفعول المقدمة وإتمام دورها . عملياً ، اذا كان تيار المعلومات قوياً جداً ومكثفاً يصاب المستمع بالارهاق ، واذا كان ضعيفاً ، يصاب بالملل ، وفي كلا الحالتين تفقد المقدمة تأثيرها المفصل .

الحالة الأولى من « انعدام الألفة » والبرودة الشعورية والغربة التي توصل بدورها الى حالة الاعياء عند المتلقي . الحالة الثانية تسمح لعناصر عرضية خارجية بالدخول الى مركز قيادة المنظومة المخاطبة ، وذلك كانعكاس للملل ، وكتمهيد لوضع المستمع في حالة حيرة وقلق تضع معهما المعاني المقصودة . إن الخطيب الساعي الى سيطرة ناجحة على مستمعيه لا يكتفي بترتيب المعلومات وبطريقة تقديمها الصوتية والحركية فقط ، وإنما بخلق انطباع مؤثر حول أهميتها . مما يفترض في المقدمة أن تتضمن نوعاً من التوازن المعرفي المنسجم مع طاقة الاستقبال لدى المستمع ومع وضعه الفكري العام . « إنها يجب أن تكون متطابقة مع محتوى مخزونه المعرفي »^(١٩) .

تحدث المقدمة الصدمة الأولى . وهذا ما يجعلها أكثر قدرة على وضع المستمع في تصرف الخطيب ، وخاصة في مجال السياسة الباحثة عن تحرير المواقف في حالي التضليل والحقيقة على السواء . قوة الصدمة المتأتية بدورها من قوة المعلومات تحول دون تكوين المستمع لرأيه الخاص ، وتعيق تركيزه المنهجي والمتاسك ، ليس فقط حول المعلومات ذاتها وإنما أيضاً حول الخطبة كلها ، بموضوعها وهدفها . وفي بعض الحالات ، وخاصة لدى الخطيب المضلل ، تخلق الصدمة المذكورة إخلالاً بالرأي العام وتضع مكانه الضياع وبالتالي تحولّ المستمع إلى فريسة سهلة للتضليل^(٢٠) .

أما المستمع الواعي وذو القدرة النظرية فإن المقدمة تساعد على معرفة نوايا الخطيب قبل البوح بها . هذا ما يدفع الخطيب المحترف الى اتقان ممارسته بشكل لا يسمح للمستمع باستباقه ، ويكتفي بتحضيره نفسياً لقبول رأيه هو . أي الخطيب - بما ورد في المقدمة . بمعنى آخر ، إن تحويل مضامين المقدمة الى موضوع قائم بذاته هي مهمة الخطيب وليس المستمع .

وعندما تكون المقدمة متضمنة تأثيرات أخرى غير المعلومات ، فإن فعاليتها ترتكز على أدوات سيطرة من نوع آخر . فالمقدمة الدينية مثلاً تضع المستمع في حالة خشوع ، في مواجهة مع الله ، بحيث يستفيد الخطيب من حالة الايمان المستنفرة لضمان سيطرته ، بغض النظر عن مضمون هذه السيطرة ، فالمهم تأمين ثقة ما مباشرة وسريعة بالخطيب ، نفس الشيء ينطبق على المقدمة التي تعتمد على ابراز الخصم ومهاجمة ما يسمى بـ « العدو المشترك » حيث يشحن المستمع بمواقف تدفعه بطريقة غير مباشرة نحو الخطيب وتضيفه الى صفوف مؤيديه .

٢) الموضوع : يحتل الموضوع مركز الخطبة أو نقطة انشداد الحركة العامة للتعبير الخطابي . فالمقدمة تمهد

له ، وتنقل المستمع الى أجواء نفسية تؤهله للاستقبال الايجابي . المقدمة الدينية مثلاً تمنح الخطيب نوعاً من السلطة ، المتأتية بدورها من اللجوء الى « دعم إلهي » يساعد على بدء الموضوع مباشرة ، بعرضه وتقديره . فهي تضع المرسل في مكانة « ثقة » مقابل وضعها المتلقي في وضعية « خشوع » . يختلف الأمر مع المقدمة المعتمدة ، في تأمينها حالة التفوق النفس - ثقافي ، على المعلومات ، إذ إن هذه الأخيرة كما سبق وذكرنا تحتاج الى نشاطية تعبيرية تختلف جذرياً عن الحالة الاولى . يكمن هدف المقدمة المعلوماتية في مساهمتها بدعم موقف الخطيب التقويمي للحدث ، موضوع الخطبة . وهي بذلك تؤسس إما قاعدة لتقويمات مشتركة بين الخطيب والمستمع ، وإما مدخل لوضع من المحتمل التوصل اليه أو احداثه . الحالة الاولى لا تتطلب جهداً مكثفاً ، لغوياً وجسدياً ، من الخطيب ، بينما الحالة الثانية تلزمه باستتباع معلوماته بكلمات تقويمية « تدفع متلقيها الى ترجيح أو رفض موضوعات وأوضاع معينة »^(٢١) .

وبينما تسير المقدمة الى الأمام باتجاه الموضوع وفي خدمته ، تنطلق الخاتمة في عملية تحريض تستعيد مفاصل الموضوع وتوجه نحوها باستمرار .

اذن ، يمارس الخطيب سلوكاً لغوياً مستهدفاً بواسطته وضع المعلومات في خدمة الموضوع . فالموضوع هو الموقف الذاتي أو الرؤية التقييمية الخاصة للخطيب تجاه حدث محدّد تسعى الخطبة الى تغيير أو خلق سلوك عند المستمع يتلاءم معه ويخدمه في آن واحد .

يشكل الموضوع محور سياسة الخطيب ودائرة تجسيد ثقافته وايدولوجيته . فالمضمون الخاص بالموضوع أو تقدير الحدث السياسي هو العامل الحاسم في تحديد السلوك المطلوب انتهاجه من قبل المستمع حيال الحدث . وعند هذه النقطة بالذات تسقط الأقنعة : تراكم معلومات المقدمة وتركيز الخطيب على تقويم خاص ، يشكّلان معاً ما يمكن اعتباره خطبة تضليلية أو اقناعية ، لغة الكذب أو الصدق . ففي زمن الموضوع يرسم مجال فحص المستمع لثقافة الخطيب وتجانس أفكاره . بالمقابل ، يتمحور نشاط الخطيب كله حول الموضوع ، حول موقفه الخاص من الحدث ، وبالتالي فهو يبذل جهداً ملحوظاً ودقيقاً في هذه المرحلة من خطبته . وأكثر الحركات بروزاً تتجسد في اصرار الخطيب على ابراز توازنه وتمالكه لأعصابه . مشيراً الى مشروعه بتقديم تحليل علمي لحدث ما . وعن طريق هذا التكتيك الخطابي (تقنية الاقناع) يحاول الخطيب تمرير « سياسته » وادخال موقفه الى قنوات مستمعيه وترسيخه هناك ، بحيث إنه حينما يطالبهم بموقف معين ، يأتي هذا الموقف منسجماً مع قناعة جرى التحضير لها بعناية فائقة .

وفق هذا السياق يمكن اعتبار مرحلة الموضوع أدق مراحل الخطبة وأكثرها حساسية . فالى جانب تخفيفها امكانية التلاعب وترجيحها لكفة الوضوح اللغوي على الأقل ، فإنها تشترط براعة علمية وفنية بدونها تستحيل الإثارة المنتظر خلقها في الخاتمة : إنها مرحلة الهدوء التي يعقبها رفع الاصبع ، وارتفاع الصوت ، وانسيال الكلمات النارية .

٣) الخاتمة: هي تسلسل الأفكار وتحويلها الى عمل قابل للتنفيذ. إنها المرحلة التي يتحدّد فيها سلوك المستمع وردود فعله. وهي، تبعاً لذلك، اختصار مركّز من خلال كلمات بحث تحريضية. تشترط الخاتمة على الخطيب، من ناحية أولى، ملائمة النتائج للمقدمات، بحيث تكون الاستخلاصات اختصاراً لمواقف جرى عرضها وتقويمها. وتلزمه، من ناحية ثانية، باعلان مطالبة بدقة واختصار مع أكبر قدر ممكن من الكلمات ذات التأثير المباشر وذات الاستمرارية، خاصة وأن خاتمة الخطبة هي آخر سيل من العبارات يتلقاه المستمع، وبالتالي آخر ما يبقى عالماً في ذاكرته من كلمات.

هذا ما يفسّر لماذا يعتمد معظم الخطباء، في نهاية كلامهم، الى استخلاص فكرة رئيسية تتمحور حولها مجموعة الأفكار التي جرى عرضها سابقاً، استخلاص يضاعف من تأثير الفكرة عند المستمع، وبه يرتبط، غالباً، السلوك المطلوب.

تختلف عبارات وكلمات الخاتمة عن عبارات وكلمات المقدمة والموضوع. ففي الخاتمة يمارس الخطيب عملية تفجير لانفعالات جرى تحضيرها بهدوء. وكلما كانت الخاتمة ملائمة لما سبقها من أفكار، كلما كان الخطيب يتمتع بحرية عالية نسبياً في التعبئة والتحريض والانفعال النفسي بدون الحاجة القصوى الى الاصطناع. بالمقابل، ولكي تكون استجابة المستمع أكثر دينامية، تتطلب الخاتمة قدرات ذهنية ومنطقية متقدمة عند الخطيب، تساعد على اختيار عباراته بدقة متناهية، فلا يتورط بكلمات تناقض الموضوع، ولا بكلمات تتعارض مع ما يريده بالفعل، إنها تلزمه بارسال آخر كلماته الأكثر قوة، والأغنى مضموناً، والأعظم قدرة على الدوي المستمر...

ج) المعنى:

«الكلام الذي لا نهاية له لا معنى له»^(٢٢).

كل خطبة ولها هدف. والهدف هو المعنى العام، المضمون الذي يتحرك من خلال الكلمات والحركات، والذي يحقق اكتماله الدلالي ويصل الى أقصى درجات وضوحه في الخاتمة: لحظة اعلان الخطيب نهاية كلامه، هي لحظة اعلانه الواضح لهدفه من الخطبة.

المعاني، التي ترجع اليها دلالات الكلمات، والتي تتطور في كل قسم من أقسام الخطبة، تلتقي كلها عند هدف وتشكل بمجموعها المشروع الرئيسي للخطيب ومحور معرفة سياسته وأبعادها.

إن انسجام المستمع مع مصطلحات معينة، وجنوحه نحو تحقيق محتواها العلمي، يتمظهران، بادئ ذي بدء، في قدرة الخطيب على اعطاء أو تعيين أو توليد قيم للسلوكين الفردي والاجتماعي. خاصة وأن القنوات السياسية الراسخة، سلبية كانت أم إيجابية، تستمد مقوماتها من أطر أخرى تكون سابقة على الخطابة أو لاحقة عليها، لا سيما وأن هذه القنوات المتولدة عن علاقات اجتماعية معينة، ويعود انتاجها الى خبرات

وتجارب وثقافات مشتركة تولّد من خلال كلماتها وجلها جماعة هي في الواقع « جماعة ايديولوجية »^(٢٣).

يتجلى هدف الممارسة الخطابية ، بأوسع معاني الكلمة ، باحداث تحوّل أو انتقال من منظومة قنوات قائمة في وعي المستمعين الى منظومة جديدة ، قد تتجاوز الحاضر وتمهّد لقنوات وعادات مستقبلية ، أو بتثبيت وتدعيم منظومة معينة من القنوات والحيلولة دون اختراقها أو تجاوزها . تساهم سياسة الخطيب الى حد بعيد في كشف ماهية الهدف المطلوب . وبالتالي ، فإن كل وحدة خطابية (خطبة) تستهدف ، باستمرار ، اما ممارسة تحريض قائم على الحقيقة وهدفه التوعية وإما تحريض قائم على الكذب وهدفه التضليل . وكلا النوعين يعبران عن نفسيهما في بنية الوحدة الخطابية نفسها وفي نوعية السلوك المحدّد من قبل الخطيب .

يستهدف تحريض التوعية تعيين سلوك ايجابي عند المستمع ، وفي الوقت نفسه ملء مخزونه المعرفي . بمعنى آخر يتناول هذا النمط من التخاطب هدفين ، واحداً مباشراً ، وآخر غير مباشر يرتبط بالأول ويتركز حول زيادة معارف المستمع وتطوير سلوكه بشكل يضمن استمرارية الهدف والقنوات الكامنة فيه وترسيخها : سلوك مباشر وسلوك متأخر .

« الحقيقة هي الشرط الأول والأساسي للتحريض . لكن نوعية التحريض لا تقاس بحقيقة مضمونه فقط ، بل أيضاً بكيفية جعلها تؤثر في تفكير وشعور ونشاط البشر . إن مهمة التحريض هي تغيير الوعي ، وانتاج مقومات وحاضات ايجابية لدى البشر ، يتم بمساعدتها الوصول في تبدل في سلوكهم ، وفق الأهداف التي يعينها التحريض »^(٢٤) . هذا ما يتطلب من الخطيب ليس فقط الاستخدام اللحظي - التكتيكي للكلمات ، بل أيضاً ، استيعاب وإدراك الأسباب الكامنة وراء حدوث التأثير . لا سيما وأنه - أي الخطيب - يتجاوز ، غالباً ، حدود الصدى الناتج عن عباراته لتشكيل نوع من الاتفاق المعرفي - السلوكي أو ما يمكن تسميته بـ « الرأي العام » . وهكذا ، يغدو هذا النوع من التحريض صياغة وتغيير الرأي العام وتوجيهه الهادف في آن معاً . كما يمتلك أيضاً كلمات - مفاتيح تمهّد للمستمع امكانية حصوله على « رؤية للضرورة » يترتب عليها فعالية عملية معينة ، وتكون الكلمات المرسلّة جزءاً من العناصر المحرّضة باتجاه هذه الفعالية نفسها .

هذا النوع من الأهداف يعبر عن صدق الخطيب ونواياه الايجابية تجاه مستمعه ، وعن حقيقة كون الجهد المبذول ، لغة وحركات ، يستهدف اقناعه وليس اخضاعه بالمعنى السلبي للكلمة . يضاف الى ذلك أن تسلسل المعلومات والأفكار ، بلاغة التعبير وجماله ، انفعالات الخطيب وحركاته ، تشكل مجموعة متكاملة من العناصر الموجّهة نحو تعيين سلوك ايجابي لدى المستمع والمساعدة على استمراريته أطول فترة ممكنة .

الميزة الهامة لهذا النوع من التحريض تكمن في قابلية مضامينه للفحص الميداني والمقابلة مع الوقائع . فالخطيب المنطلق من حقائق سياسية يوافق ، من حيث المبدأ ، على وجود نوع من التعليل الميداني والبرهان المادي لعباراته . لذلك ، فهو - اذا كان يستهدف عملياً تعيين سلوك قائم على قناعة بالحقيقة - لا يخاف من

المستمع ، ولا يلزمه البحث عن تبريرات اقناعية ، ولا يسيطر عليه الاضطراب والتردد والتلعثم أثناء اللقاء . وهو ، في نهاية التحليل ، لا يخشى الواقع ، ويقدم لغته بوصفها تعبيراً عن الواقع كما يراه ، وبوصفها خاضعة على الدوام لامكانية المقارنة مع هذا الواقع .

يسير التحريض التضليلي في خط معاكس تماماً لسابقه . فالخطيب السياسي الذي يستهدف خلق سلوك معين لدى مستمعه استناداً الى تضليله لحقيقة ما ، لا يتمتع بأية حرية للحركة مهما كان بارعاً في اللقاء وتكثيف المعلومات . فالتضليل هو ممارسة لغوية غير قابلة للتحقق مع الواقع ، وكونها كذلك ، فإن كلماتها والعبارات التحريضية المستعملة فيها تترافق دائماً باضطراب سياسي - ايدولوجي يعكس بدوره السمة العامة للوضع الذي تجري فيه عملية التخاطب . هذا ما يساعد على القول إن الخطابة التضليلية تتضمن لغة مليئة بالأوهام السياسية والناورات وقنوات مزيفة للتعبئة النفسية والايولوجية . كما أنها ممارسة لغوية هادفة « الى دفع الإنسان بطرائق ملائمة - سيكولوجية اجتماعية ، سيكولوجية - جماهيرية - لانتهاج سلوك معين » . وتتوجه تحديداً لمستمعين يشكلون « كتلة غير مدربة وعاجزة سياسياً ، توجه حيث يراد لها أن تصل ، دون أن تكون في وضع يمكنها من البت بما اذا كان توجهها في صالحها أم لا ... »^(٢٥) . فالمستمع الذي يتعرض للتضليل لا يمتلك ، عادة ، قدرة ذاتية لحماية نفسه من التأثيرات المنصبة عليه من قبل الخطيب ، كما لا يستطيع مجابهتها بتصورات خاصة به ، نابعة من صميم تجاربه . من هذه الشغرة بالذات يدخل التحريض التضليلي ويتسرب الى وعي المستمع ليمنعه من التفكير بمدى تطابق نمط السلوك الذي يقاد اليه مع الواقع المعطاة .

وبينما يعتمد الخطيب ، الباحث عن نجاح أفضل لتضليله السياسي ، وبدرجة قصوى على الحيلولة دون امكانية الربط العكسي وفي أصعب الحالات اعاقة اجرائه ، يدفع التضليل المستمع الى نمط معين من السلوك ، أو الى زيادة احتمال حدوثه ، واذا كان من الصعب التوصل الى هذين الهدفين ، يحاصر الخطيب الأنماط السلوكية غير المرغوب بها ويبرزها بشكل تبدو فيه « غير أخلاقية وخرقاء » .

على مستوى حركة اللغة أو تقنية الخطابة ، يعتمد الخطيب المضلل الى تبديل منتظم في معنى الكلمات والرموز السياسية المركبة المتطورة التي يمكن لها أن تؤدي الى سلوك مغاير ومتعارض مع السلوك المرغوب فيه من قبله أو الى تشويه « المفاهيم السياسية المركزية » لخصم ما من خلال تحريف عباراته وجعلها تبدو في النهاية مشکوكاً فيها ، مشبوهاً في أمرها ، وابرار لا أخلاقيتها وتعارضها مع المصلحة العامة؟؟

خطابة السياسة عند السلطة هي فعل عنف ، ممارسة قمع : التضليل اللغوي ينوب عن العنف الجسدي ويكمله في نفس الوقت .

يمارس « خطيب » السلطة نشاطاً تحريضياً عن طريق اللغة قوامه تقديم قيم وهمية للمستمع بوصفها قيماً عليا ، ومبادئ تشكل ، في رأيه ، القاعدة المطلوبة للمجتمع السليم .

بوصفها احدى وسائل استراتيجية السلطة ، تمتلك الخطابة السياسية ميزة خاصة تحاول من خلالها تجاوز تقييم الناس لممارسة العنف الجسدي وموقفهم منه - باعتباره نقطة ضعف أساسية في قوة السلطة - وذلك باللجوء الدائم الى التضليل « الاعلامي » الذي يوصل الى نفس النتائج التي يستهدفها العنف ، ولكن بوسائل أقل وحشية . بهذا المعنى ، تكون الخطابة السياسية جزءاً أساسياً في ممارسة السلطة وفي انجاح مشاريعها . لا يعني ذلك اعطاء صك براءة للخطابة المعارضة للسلطة ، خاصة اذا كانت تمارس نفس عملية التضليل الهادفة الى خلق سلوك متناقض مع الفائدة الفعلية للمستمعين .

انسجماً مع هذه الملاحظة يمكن القول بأن الخطابة التضليلية تركز على الانفعالات . فهي لا تتضمن عبارات قابلة لتقويمات علمية ، وفي حالة تضمينها لها تنهار أمام قوة الواقع ، لأن التحديد الذي يلزمها ويترتب عليها ، في الكلمات والمفاهيم ، يفصح نواياها ، ويدفع المتلقي الى اجراء لغة مؤثرة وعاطفية محدودة لا تسمح بالمقارنة مع الوقائع .

اضافة الى ما تقدم ، يعمل الخطيب السياسي - في حالة التضليل - على ازالة التفكير المنهجي عند المستمع باضعافه واستبداله بانفعالات . الأمر الذي يتطلب آلية خطابية معينة قائمة على معلومات وتقويمات تحريضية تحول دون قدرة المستمع على محاكمتها مباشرة وبشكل نقدي . وهكذا ، يمارس المحرض التضليلي عنفاً لغوياً ، تدميراً للتفكير العقلاني والمنطقي عند المستمع ، لكي يتسنى له توسيع مجاله الانفعالي ، وخاصة الانفعالات المترتبة بعواطف وشحن نفسي غير خاضع للرقابة . كل خطبة سياسية ، وكل نشاط خطابي ، تستهدف احدى هاتين النتيجةين : التوعية أو التضليل ، وكل لغة بهذا المعنى هي سلوك تحريضي باتجاه أحد هذين الهدفين . كل خطبة لا تنتهي الى أحدهما تكون لغة عبثية .

التعبير الخطابي ، البنية الشكلية وتسلسل الأفكار ، كلها حركات تتجه دوماً نحو هدف : السهم الذي لا يصل الى هدفه ، ويبقى منطلقاً ، لم يوجد بعد !

باختصار ، في لغة التضليل « الاتحاديد » هو الهدف النهائي ، بينما في التوعية يكون نقطة الانطلاق . وفي الحالتين الهدف هو قاعدة الخطبة : « التأثير في سلوك البشر - تسهيل استقراره أو تغييره - سواء في الانتاج ، أم في الحياة العامة والتصرفات الاخلاقية ... »^(٢٦) .

٢ - حول لغة السياسة :

لا تدّعي الصفحات السابقة المامها النظري التام لكافة الجوانب المتعلقة بالخطابة السياسية كفن وعلم ، بقدر ما سعت الى تبيان بعض خصائص هذه الممارسة من نواحيها العامة ، حاصرة همّها في الجانب اللغوي ، شكلاً ومعنى ، دون التوقف أمام « السياسة » نفسها بوصفها المحرك المضمر والفاعل المحيط بحركة اللغة المذكورة آنفاً . خاصة وأن الخطبة السياسية تتضمن على الدوام لغة وموقف . أي أنها لغة سياسية أو شكل

التعبير الخطابي المستهدف غاية سياسية مباشرة. إنها اللغة التي تحمل مشروع السلطة: تبرّر سلطة قائمة أو تؤسس سلطة بديلة. وهنا تحديداً يكمن الفرق بين اللغة السياسية للخطابة وغيرها من « اللغات » الاقتصادية والعسكرية والدينية مثلاً: خصوصية كمون السلطة فيها. وبالتالي، فإن تحديد السياسة الفعلية لخطيب ما، يصبح شرطاً رئيسياً لمعرفة ونقد وتحليل لغته (خطبته). إن تعيين الحقيقة يسبق، هنا، تعيين الخيال، إذ إن الأول يتمظهر في الثاني. والثاني يجسد صورة لغوية، وتعبيراً خطابياً عن الأول.

لسنا هنا بصدد اجراء، بحث نظري. حول السياسة - لأن ذلك يتطلب دراسة خاصة منفصلة ومعمّقة لما في هذا الموضوع من تناقضات وتعقيدات - وإنما نحاول اعطاء بعض الملاحظات حول النقطة المركزية في السياسة وهي السلطة. وذلك انطلاقاً من اعتبارنا السياسة وسيلة تثبيت سلطة ما أو وسيلة وصول إليها. بهذا المعنى، نعطي للغة السياسية صفة التعبير عن أحد هذين الهدفين. إننا نعتبر السياسة تكتيك السلطة واستراتيجيتها ونوافق « غرامشي » في وصفها بأنها « دائرة الهيمنة » الرئيسية في مجتمع معطى^(٢٧).

وللسياسة عدة تعريفات، لكل منها خلفياتها وخصوصياتها. « يعتبر البعض السياسة بأنها دائماً علم الدولة، سلطة منظمة في جماعة وطنية في القسم الأكبر منهم يرى فيها علم السلطة المنظمة عند كافة الجماعات ... »

غالباً. يحظى مفهوم السياسة « علم السلطة » بتفوق جوهري على الآخر^(٢٨). وبسبب كونها كذلك، لا يمكن اعتبارها « موضوعية ». فالسياسة التي هي تعبير مفهوم ومصالح جماعة ما، لا يمكنها أن تكون فوق هذه الجماعة. ولا يمكن بالتالي، للجماعة التي تنادي بهذه السياسة أن تكون حيادية داخل علاقات قوى مشدودة كلها نحو السلطة. السياسة هي دائماً سياسة جماعة ما، طبقة ما، قبيلة ما، لا يوجد إطلاقاً سياسة لذاتها، السياسة للسياسة. وحسب دوفرجيه « Maurice Duverger » « لا يوجد صورة « موضوعية » تماماً للسياسة، لأنه لا يوجد سياسة موضوعية تماماً »^(٢٩).

تؤدي هذه الملاحظة الى القول إن السياسة هي مجال الصراع المكشوف حول السلطة، واستتباعاً دائرة نشاط (صراع) فئات اجتماعية متناقضة، تعمل كل منها على ايصال التناقض الى نتيجته النهائية: الحل بازاحة الطرف الآخر، إذ إن امتلاك السلطة يشكل الرهان الرئيسي - دوفرجيه. بالمقابل تحدد الجماعات المتصارعة، نسبياً، قوانين الصراع ومراكز سياستها حياله: صراع طبقات، صراع قبائل، صراع مسلح، صراع ديمقراطي...^(٣٠)

كل تناقض ذو نهاية سياسية، ويدور بين جماعات « سياسية »، يشكل كل طرف منه سلطة: السلطة القائمة - الشرعية - والسلطة المعارضة. والصراع حول السلطة إذن مرآة لصراع « السلطات ». تمتلك سلطات الصراع أدوات مغايرة، في المضمون غالباً، بينما قد تستعير من بعضها البعض، ومن المجتمع أيضاً، أشكال تحريضها وإذكائها لنار الصراع. وفق هذا السياق، تكون لغة السياسة، مادة رئيسية ووسيلة هامة من وسائل

كشفت هذه الأدوات السياسية والايديولوجية ، الأخلاقية والاجتماعية الخ... ف « السياسة مسألة مرتبطة بالتحريض أو بلغة سياسية ذكية »^(٣١) لغة السياسة إذن فنّ من فنون الصراع ، وهي ، تماماً كالسياسة ممارسة نخبة ، احتراف قوى قليلة تدخل مجموعة كبيرة من البشر في مشروعها السياسي . لكن ما يمكن تعميمه على المستوى السياسي (المشروع) لا ينطبق على مستوى اللغة التي تبدأ كممارسة محصورة بالقوى قائمة الصراع وتنتهي كذلك دون أن تؤدي إلى تعميم « ديمقراطي » للأفواه الناطقة بها . هذا ما يجعل احتكار اللغة والكلام السياسي من أهم ميّزات القوى المتصارعة حول السلطة ، ومن أهم وسائل إدارة الصراع وتوجيهه وجهة محدّدة ، مقرّرة مسبقاً من قبل النخبة .

وإذا كانت البنى الاجتماعية والوضعيات التاريخية السابقة قد حصرت حق اللغة السياسية (خطابة وكتابة) بالزعماء والملوك والخلفاء وشيوخ القبائل... فإن تطوراً ملحوظاً طال هذا المجال ، فلم يعد الكلام صفة خاصة يمثل الحزب أو الطبقة أو القبيلة أو الطائفة فقط ، بل أيضاً أصبح لكل من هؤلاء « ناطق رسمي » يقوم بمهمة « الكلام » السياسي اليومي وفي المناسبات . أبعاد حق الكلام مباحاً إلا لناطق خاص ينال شرعيته من داخل القوة (الجماعة) الباحثة عن السلطة أو الموافقة عنها . وفي الحالتين ، تكشف لغة السياسة أنها منذ البداية لغة نخبة تنظر للصراع وتؤدّله ، تحرّض وتعبىء الناس باتجاهه .

حول هذا الموضوع يشير غرامشي إلى أن الآراء والأفكار السياسية « لا تولد تلقائياً في العقول الفردية ، بل ان لها مركزاً من تنشأ وتشتع ويدعى لها وتقع ، والمركز هذا هو الفئة من الأشخاص أو حتى الفرد الواحد الذي طوّر هذه الافكار وعرضها بشكلها السياسي الحقيقي... إن تعداد « الأصوات » مظهر نهائي لعملية طويلة يكون فيها الأثر الأكبر بالتحديد لمن يكرس أفضل إمكانياته - بما هي - للدولة وللأمة »^(٣٢) . تبعاً لذلك ، لا تهدف لغة الخطابة السياسية إلى إبداع مفاهيم ، واكتساب مقولات جديدة وصحيحة حول وقائع سياسية . إنها تهدف إلى دفع البشر إلى القيام بأنماط من السلوك لتكريس وترسيخ مفاهيم ومقولات قائمة ، ولتحقيق مصالح سياسية واجتماعية معينة . وحسب كلاوس « لا تخدم لغة السياسة والتحريض ، إذن ، إيجاد صياغة لغوية لمقولات صحيحة بالدرجة الأولى ، بل تعمل للتأثير في وعي من تتوجه إليهم ، لدفعهم إلى نمط سلوكي معين ، أو لترجيح احتمال حدوثه »^(٣٣) .

انسجاماً مع التعريف الآنف الذكر للسياسة ، تلعب الخطابة دوراً مهماً في خدمة هذه الأخيرة . من ناحية أولى ، يتحدث الخطيب السياسي غالباً باسم جماعة ما ، مثلاً إرادتها في اكتساب شيء ما ، في السيطرة على سلطة ما أو الدفاع والحفاظ على سلطة ما وتقديمها كنظام طبيعي أو إلهي ..

ولما كان العنف ، غالباً ، هو الشكل الحاسم في تحقيق الأهداف السياسية ، فإن الخطابة (لغة السياسة) تصبح ممارسة نظرية لعملية العنف (كلاوس) أو ، كما يقول دوفرجيه « العنف بأيدٍ نظيفة » . يتطلب العنف المذهب ، حسب غرامشي ، خطباء مثقفين « اختصاصيين في تبرير الشرعية » ، قادرين على وضع « الوحدة

الإيديولوجية والسياسية « في خدمة » البنية الراهنة للهيمنة ، جاعلينها مقبولة للفئات المتحالفة والتابعة ومعممين سيطرتها »^(٣٤).

من ناحية ثانية ، يعدّ الخطيب السياسي مؤدجاً من الدرجة الأولى ، ولغته ليست إلا تظهراً لثقافته وثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه . عملياً ، تعبّر لغة السياسة عن أطر الصراع السياسي - المؤلفة بالأصل من مجموع المؤسسات ، العادات ، التقاليد ، العقليات ، المعتقدات ، التمثلات الجماعية ، نظام القيم في المجتمع ... إلخ - ويرمز إليها بواسطة الكلمات والعبارات .

من ناحية ثالثة ، تلعب الخطابة السياسية إلى جانب أدوار العنف والأدلة دور التموية . بدون العودة إلى ما سبق ذكره من تفاصيل حول التحريض التضليلي ، نكتفي بالإشارة هنا إلى أن الخطيب السياسي المموه يضع ، محل الأهداف والأسباب الحقيقية للممارسة السياسية ، أهدافاً وأسباباً مصطنعة ولكنها « أكثر شعبية وتتمتع بتأييد كبير من جانب الرأي العام » ، أو يدعو إلى نظام جديد للقيم يكون في نفس الوقت وسيلة تبرير ذاتي وأداة تحريض . هذا ما نراه مثلاً عندما يحاول خطيب ما إقناع مستمعيه بأن مصالحهم معرضة للخطر ، بينما الخطر لا يطال سوى مصالحه هو ، حيث يحتزع الخطيب « عدواً » أو يبالغ في إبراز أهمية عدو فعلي ، مبرراً ، تحت شعار « ضرورة الدفاع ضده » بعض الإجراءات التي تفيد الخطيب وحده لا غير^(٣٥).

أخيراً ، الخطابة السياسية هي أحد أشكال الصراع السياسي نفسه ، مستخدماً أسلحة أخرى : اللغة . إنها الكلمة عندما تدخل معركة السلطة : في مقابل الرصاصة التي تحدث تدفقاً سريعاً للدم ، تأتي الكلمة التي لا تعرف تدفقاً خارجياً ، وإنما تتمظهر جراحها بأشكال أخرى : تدفق داخلي انفعالي ، غليان نفسي .

الحواشي

- (١) نجيب المانع : الحرية والعبودية في الأفق اللغوي . مجلة مواقف ، عدد ٧ ، كانون الثاني - يناير ، شباط - فبراير ١٩٧٠ ، صفحة ٢٣٢ .
- (٢) المرجع السابق ، صفحة ٢٣٤ .
- (٣) وضاح شرارة : المسألة التاريخية في الفكر العربي ، معهد الإنماء العربي ، ١٩٧٧ ، صفحة ٢٠٨ .
- (٤) Edmond Ortigues: Le Discours et le symbole, Ed. Montaigne, Paris 1962, p.24.
- (٥) Sarah Kofman: Nietzsche et la Metaphore. Ed. payot. Paris 1972 p.28.
- (٦) أوريتغ ، مرجع مذكور ، صفحة ٢٤ .
- (٧) حول هذا الموضوع ، من المفيد مراجعة كتاب مصطفى لطفي : اللغة العربية في إطارها الاجتماعي - معهد الإنماء العربي ، بيروت ١٩٧٦ ، صفحة ١٢٠ وما بعدها .
- (٨) جورج كلاوس : لغة السياسة ، ترجمة ميشال كيلو ، دمشق ١٩٧٧ ، صفحة ١٥ .
- (٩) للمزيد من التفاصيل ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .
- (١٠) المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

- (١١) يساعد رصد عبارات الناطق الرسمي باسم سلطة ما (زعيم، رئيس، ملك، وزير، ضابط كبير الخ...) حين يصف إحدى المظاهرات المناوئة للسياسة الرسمية، على تأكيد صحة دور هذه الكلمات. ففي تصريحه أو خطبته ترد دائماً كلمات مثل: فوضى، طيش، إخلال بالأمن، طفولية، هو، تخريب...
- (١٢) المرجع السابق، صفحة ٢٩.
- (١٣) المرجع السابق، صفحة ١٠٦.
- (١٤) Bernard Poutrat: *Version du Soleil, figures et système de Nietzsche*. Ed. du Seuil, Paris 1971, p.56.
- (١٥) كلاوس، مرجع مذكور، حول تعددية الدلالات صفحة ١٨٥، حول علاقة الكلمة بالأيديولوجية، الصفحات ١٤٠ - ١٥٧ و ٢٠٦.
- (١٦) كوفمان، مرجع مذكور. حول علاقة الداعي بالموضوعي، صفحة ٥٢. حول علاقة الشكل بالمضمون، صفحة ٤١. حول علاقة الشيء بالإشارة، ص ٣٠، ٣١.
- (١٧) كلاوس، مرجع مذكور، صفحة ١٦.
- (١٨) المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٦.
- (١٩) حول المعلومات ودورها، المرجع السابق، ص ٤٥ - ٤٦. ويضيف كلاوس: «يجب أن لا يبرز الترتيب التشكيلي غنى وتنوع المعلومات فقط، وإنما يجب أن يعطي انطباعاً حول أهميتها». صفحة ٥٤ وص ٢٤٠ - ٢٤١.
- (٢٠) تتأكد هذه الملاحظة بشكل فاضح في عبارات الخطيب والتصريحات التي يطلقها على الدوام فقط الزعماء العرب أثناء تبرير سياستهم.
- (٢١) كلاوس، مرجع مذكور، صفحة ١٦.
- (٢٢) أورتيغ، مرجع مذكور، صفحة ٣٨.
- (٢٣) كلاوس، مرجع مذكور، ص ٩٤ - ٩٥.
- (٢٤) المرجع السابق، صفحة ٢٣٢.
- (٢٥) حول تعريفات التضليل، المرجع السابق، ص ١٧٠ - ١٧١، ١٩٥ - ١٩٦، ٢٨٣ - ٢٨٤.
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٣.
- (٢٧) يقول غرامشي: «لا يجد تحليل المستويات المختلفة لعلاقات القوى ذروته إلا في دائرة الهيمنة والعلاقات الأخلاقية-السياسية». أنطونيو غرامشي: الأمير الحديث. ترجمة زاهي شرفان وقيس الشامي، بيروت ١٩٧٠، صفحة ٦٦.
- (٢٨) Maurice Duverger: *Introduction à la politique*, Ed. Gallimard, N.R.F. Paris 1964, pp.15-16.
- (٢٩) المرجع السابق، صفحة ١٩.
- (٣٠) حول نوعية السلطات المتصارعة، المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٢.
- (٣١) كلاوس، مرجع مذكور، صفحة ١٩٣.
- (٣٢) غرامشي، مرجع مذكور، صفحة ١٢٤.
- (٣٣) كلاوس، مرجع مذكور، صفحة ٢٢٥.
- (٣٤) راجع أيضاً كلاوس، صفحة ١٩٤.
- (٣٥) للمزيد من التفاصيل حول تقنية التمويه، من المفيد مراجعة دوفرجه، مرجع مذكور، ص ٢٤٩ - ٢٥٢.